﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون: 112 - 114]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ مَن هم الفائزون، وكان ذلك حسرةً على الكافرين[1]؛ جاءت هذه الآياتُ فسألت الكفّارَ عن مُدّة إقامتِهم قبلَ الآخرة[2]؛ لتُؤكّد لهم أنّ ما أقاموه في الدُّنيا قليلٌ مقارنةً بما ضيّعوا من خير الآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِنِينَ﴾: السُّنون جمعُ سَنَة، وتدلّ على مُدّة زمنيّة[3]، وتُطلَق على الحَوْل؛ لأنّه يتضمّن جدبًا وخِصْبًا ثمّ يعود الجَدْبُ[4]؛ فهي امتدادٌ زمنيٌّ، سواءٌ أكان بخير أم بسوء، وإن غلب استعمالها في الجَدْب[5]، ومعنى ﴿سِنِينَ﴾ في الآية: مراحلُ زمنيّة تُقَدَّر بالأعوام، ومعنى ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾: مقدارًا من السّنين.

2) ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾: العَدُّ: هو إحصاء شيءٍ ما؛ كالأفراد والآيات، ويغلب على المعدود أن يكون مضبوطًا ومتماثلًا؛ أيّ: من الشّيء نفسِه[6]، والعَدَد: هو مقدارُ ما يُعَدّ[7]، ويُقال: إنّهم ليَتَعادّون ويتعدَّدون على عشرة آلاف؛ أيّ: يزيدون عليها[8]، ومعنى ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾ في الآية: أصحاب العَدَدِ والحساب[9].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 67.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سنه).
(4) الرّاغب، المُفردات: (سنه).
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سنه).
(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدد).
(8) الرّاغب، المُفردات، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عدد).
(9) الرّاغب، المُفردات: (عدد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الحَقّ ﷻ بعد أن بكَّتهم وهم في العذاب وبيّن لهم الفائز منَ الخاسر: كم مقدارُ السّنوات التي أقمتُموها في الأرض؟ وهنا يقولون في يأسٍ: أقمنا يَوْمًا أَوْ أدنى من ذلك؛ لقصر تلك المُدّة بجانب ما هم فيه من عذاب، لا ندري مقدارَها الحقيقيّ؛ فاسأل العارفين بالإحصاء والعدّ، فيأتيهم الجواب: لو كنتم تعلمون حقًّا لأدركتم أنّكم ما أقمتُم فيها إلّا وقتًا قليلًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل صدر الجملة عمّا قبلها:

جوابٌ عن سؤال تقديره ماذا قال لهم ربُّهم عن حالهم السّابقة؟

ابتدأت الآية ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالقول مفصولة عمّا سبق، والعِلّة في ذلك أن الآية على تمام الوصل بما سبق، وهي جواب عن سؤال مقدّر: فماذا قال ربُّهم عن طغيانهم وفرحهم بحالهم؟؛ ذلك أنّ المتكبّرين اشتغلوا عنِ الفوز الحقيقيّ، وتاهوا في ضَحِكهم واستهزائهم، كأنّهم في تمام العِزّة والسّعادة والتّمكّن، فيأتي السؤال: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟[2]

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتي ﴿قَٰلَ﴾ و﴿قُلۡ﴾:

خبر لتقرير اللّبث القليل، وأمر للمخاطب المستهزئ بدءًا والمعتذرِ آخرًا

في قوله: ﴿قَٰلَ﴾ قراءتان؛ قرأ جمهورُ القُرّاء: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ بالفعل الماضي، ويُحمل ذلك على الإخبار، فاللّهُ أوقفهم بالسّؤال ليَتقرَّرَ حينَها الجوابُ[3]، وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿قُلۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ خطابًا للكُفّار[4]، وفي ذلك ربطٌ بين مشهد السّخرية والضّحك وهم في الدّنيا، وبين مشهد العذاب بعد انقضاء مدّتها؛ والمعنى: فقل لهؤلاء المُستكبرين: كم كان لبثُكم في الأرض؟ وذكّرهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10169.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 158.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/330، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 592.

بذلك وهم في فُسْحَة مِن أمرهم، فجمعت القراءاتان بين بلاغة الخبر في قراءة الإخبار بالفعل الماضي، وبلاغة الإنشاء في البيان بفعل الأمر، فحجّة القراءة على الخبر عمّا هُو قائل، أو من أحب من عباده أو ملائكته للمبعوثين يوم القيامة سائلًا لهُم عن لبثهم بعد وفاتهم، وهُو فعل منتظر -وجرى بمعنى المُضيّ -؛ لأنّ أخبار القيامة - وإن كانت لم تأت بعد - فهي بمنزلة ما قد مضى إذ ليس فيما مضى شكّ في كَونه ووجوبه فَجعلت أَخْبَار القِيامَة في التَّحْقِيق كمَا قد مضى، وحجَّة من قَرَأَ ﴿قُلْ﴾ أَن المَعْنى في ذَلِك أَن أهل النَّار قيل لَهُم قُولُوا ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ على الأَمر لَهُم بِأَن يَقُولُوا ذَلِك، فَأَخْرج الكَلَام على وَجه الْأَمر بِهِ للْوَاحِد، وَالمرَاد الجمَاعَة؛ إِذ كَانَ المَعْنى مفهومًا، وَالعرب تخاطب الْوَاحِد - ومرادهم خطاب جمَاعَة - إِذا عرف المَعْنى كَقَوْلِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6] والمعْنَى مُخَاطبَة جَمِيع النَّاس[1].

بلاغة الاستفهام بـ﴿كَمْ﴾:

جاء السّؤال في الآية: ﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، والسّؤال بـ ﴿كَمْ﴾ سؤالٌ عنِ العَدد، ولا يقف عند الاستفهام، وإنّما يتجاوز ذلك إلى استقصار مُدّة لَبْثِهم[2]، والتّأسيفُ على ما أضاعوا من فُرص للاهتداء[3]، والتّبكيتُ والتّوبيخ[4]، فهم قد ظنّوا دوامَ حالِهم؛ فخاب ظنّهم لمّا شهدوا الآخرةَ دارَ الحياةِ الكاملة.

استقصارُ مُدّة اللّبث، والتّأسيفُ على تفريطهم، والتّوبيخُ على سوء ظَنِّهم

إيثارُ لفظ ﴿لَبِثْتُمْ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبّر القرآنُ بلفظ اللّبث في قوله: ﴿لَبِثْتُمْ﴾، والسِّرُّ في اختيار هذا اللّفظ هو أنّ مادّته - وهي اللبث - تدلّ على إقامةٍ ممتدّة على حالٍ

كانوا قادرين على نفع أنفسهم، لكنّهم لم يفعلوا!

(1) ابن زَنْجَلة، حجة القراءات، ص: 493.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 192.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 298.

واحدة[1]، وهو ما يُشعر الكفّارَ بأنّهم مُتمكّنون في الأرض قادرون عليها[2]، وما ذلك إلّا لتصوّرهم بأنّ حالهم مستمرّة لا تنقطع، ومن ناحية أخرى فإنّ لفظ ﴿لَبِثْتُمْ﴾ يُشعر بانتهاء تلك المُدّة مهما طالت، لذلك فهي تُعدّ، فاللّبثُ هو انتظارٌ لانتقال؛ ليُشعِرَ بأنّ الإقامة في الأرض عبور وليست قرارًا، وقد نظم اللّبث فعلًا ماضيًا؛ ليَدُلّ على حصول اللّبث في زمن مضى.

نُكْتَةُ التّقييد بالجارّ والمجرور، وتقديمِه على المعدود:

تعلّق فِعلُ اللّبث بالجارّ والمَجرور ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، مقدّمًا على المعدود ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾، ونُكْتَةُ التّقديمِ هنا: هي بيان أنّ المقصود بالسّؤال هو إقامة خاصّة، وهي التي كانت في الأرض؛ ليَستحضِرَ المخاطَبُ بالسُّؤال الأرضَ والإقامةَ فيها، فهي ليست أيّ إقامة، ثمّ بعد ذلك ليُعَدّد سنواتِ هذه الإقامة، وهذا التّقديم مؤسَّسٌ على التّقييد بنفس الجارّ والمجرور: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على خلاف الظّاهر؛ لأنّ اللّبث لا يكون إلّا في الأرض، وسِرُّ ذِكْر القيد الإبلاغُ في تمكين اللّهِ إيّاهم في الأرض؛ وهم في الدّنيا، ومعنى المُكثِ يدلُّ على أصل هذا التّمكين، والتّمكينُ في ذاته - بغضّ النّظر عن مُدّته - كان ينبغي أن يترتّب عليه شُكرُ اللّهِ بتوحيده وعبادته، فكيف إذا كان عددَ سنين؟! لكنّهم رتّبوا عليه عكسَ ذلكَ.

للدّلالة على أنّ المقصود بالسّؤال إقامةٌ خاصّة، وهي تمكينُ اللهِ لهم في الأرض

تعدُّد دلالةِ الجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وبلاغتُه:

تعدّدت دلالةُ الجارّ والمجرور في الآية؛ وذلك تبعًا للظّرفيّة الخاصّة في حرف الجَرّ، واتّساع دلالةِ الأرض؛ إذ يُطلَق لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على الحياة الدّنيا؛ لأنّ مجالها هي الأرض، فيتعلّق الجارُّ والمجرور بفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: حَييتُم[3]، ويكون السّؤالُ عن مُدّة

في الظّرفيّة الخاصّة لحرف الجَرّ، واتّساعِ دلالةِ الأرض، إيجازٌ بديع

(1) الرّاغب، المُفردات: (لبث).
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 193.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 82.

الحياة الدّنيا للذين يعتقدون بأنّ حياة التّرف دائمةٌ لا تَبيد أبدًا، وتُطلَق الأرضُ على البسيطة التي يحيا عليها الإنسان، ومع ملاحظة حرف ﴿فِي﴾ الذي يدلّ على الظّرفيّة والإحاطة، فيُشير الجارُّ والمجرور حينَها إلى القبر؛ أيْ: داخل الأرض، ويكون تقدير الفعل المحذوف: دُفنتُم، ويكون السّؤال لهم بعد أن قاموا من الأرض: كم لبثتُم في جوفها؟ للذين يُنكرون البعثَ، ويعتقدون أن آخرَ حياتِهم إلى تراب[1]، والآيةُ تحتمل السّؤالَيْن، فتتعدّد معها الدّلالات، فكم حَييتم في الدّنيا؟ وكم بقيتم فيها موتى ثمّ حَييتم؟.، وهذا ضرب من الإيجاز بديعٌ.

فائدة قوله: ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾، ودلالتُه:

المسؤول عنه هو مِقدارٌ من السّنوات، لا الشّهور والأيام

جاء السّؤال بـ ﴿كَمْ﴾ مُقترنًا بقوله: ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾؛ فصار المطلوبُ الأوّلُ من السّؤال هو العَدّ، فـ ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييزٌ للسّؤال[2]، لِما في ﴿كَمْ﴾ من الإبهام[3]، وقد جاء السّؤال عن عدد السّنين لا عن الشّهور ولا الأيام؛ لأنّ أصل المُكْث أن يُقَدّر بالمُدَد الطّويلة لا القصيرةِ، ممّا يكون الوعيُ بها، بخلاف المُدد القصيرة[4]، ومجاراةً لِما في اعتقاد الكفّار بطول أَمَدهم، ودوامِ النّعمة فيهم، فكم هي المُدّة التي قضّيتموها حتّى تغفلوا عمّا بعدها، أو تستبعدوها، وحتّى تستهزؤوا بمَن يُعِدُّ لما بعدَها.

بلاغة الكناية في السّؤال بـ ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

السّؤال عن مُدّة اللّبث، والمقصدُ بيانُ محدوديّة الحياة وسرعةِ انقضائها

يُلْحَظ في السّؤال بـ ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنّه في الظّاهر سؤالٌ عن المُدّة؛ أيْ عدد السنوات، بما يوافِق جوابَهم بعدَه، ولكنّه يدلّ بطريق الكناية على معنًى آخَر؛ فإذا كان السّؤال في الآية عن حياة

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 158.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 97.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 591.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.

وإقامة خاصّة هي حياةُ التّنعّم والتّرف التي أدّت بهؤلاء المُتكبّرين إلى الاستهزاء بعباد الله، فتلك الحياةُ هل كانت طويلة؟ وهل دامت؟ فكان السّؤال عن العَدّ، وكان المقصودُ هو بيان محدوديّتها وسرعةِ انقضائها، وإذا كان السّؤال عن مُدّة بقاء الإنسان ميّتًا في قبره، فهو سؤال عن مُدّة الانتظار فيها قبلَ البعث، ويتضمّن بالتّبع إلجاءَهم إلى الاعتراف بقُبح اعتقاد استحالة البعث[1].

عِلّة فصلِ صدر الجملة عمّا قبلها:

جوابٌ عن سؤال تقديرُه فماذا كان جوابُهم؟

فُصِل صدرُ الجملة ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عمّا سبقها؛ لأنّ السّابق هو سؤال، فتكون هذه الجملة جوابًا، ويُقَدَّر سؤالٌ محذوف هو: فماذا كان جوابُهم؟ على عادة القرآن في الفصل بينَ الأقوال في المحاورات[2].

فائدةُ تكرارِ لفظِ اللّبث:

انضباطٌ بأصل المُحاورة، وخضوعٌ تامّ لملك الملوك

جاء الجوابُ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾، ويُلْحَظ تكرارُ لفظِ اللّبث في: ﴿لَبِثْنَا﴾؛ فقد ذُكر في السّؤال الموجّه إليهم من قبلُ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؛ وفائدةُ ذلك: تعلّق الإجابةِ بأصل السّؤال، وهو ما يُشْعِر بانضباطٍ تامٍّ، فلا كلامَ يخرج عن النّسق، وفي ذلك خضوعٌ تامٌّ للمَلك الدّيّان، يجعلُهم يُكَرّرون نفسَ اللّفظ.

دلالة حرف ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾:

الاستدراكُ بمُدّةٍ أقلّ لضآلتِها

وقع التّردّد في جواب المُتكبّرين: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بحرف ﴿أَوْ﴾، وكما يدلّ ذلك على التّردّد الحاصل لهم، يدلّ على التّدرُّج من الأعلى إلى الأدنى، فهو في معنى الاستدراك؛ أيْ: يومًا بل بعضَ يوم[3]، وهو ما يُشير إلى ضآلة المُدّة التي يشعر هؤلاء بأنّهم لبثوها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 236.

وذلك لأنّهم كانوا فيها يتمتّعون ويرتعون في الحرام، فكانت قصيرةً في نظرهم[1].

بلاغة الإظهار بدلَ الإضمار في ﴿يَوْمٍ﴾:

كان من الممكن أن يكون جوابُهم: (لبثنا يومًا أو بعضَه)، لكنّهم أظهروا اليوم بدل أن يُضمروه؛ وما ذلك إلّا لكمال تقرّر مقدارِ اليوم حدًّا أقصى في أذهانهم[2].

بلاغة الكناية في ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾:

تعجيلُهم بالإجابة بقلّة الأيام إشارةٌ إلى رغبتهم في التّخلّص منَ العذاب

يدلّ جوابُ المُتكبّرين: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ على تحديد مُدّةٍ معيّنة في جوابٍ مباشر عنِ السّؤال، ويشير أيضًا إلى المعنى اللّازم عنه، وهو قِلّةُ تلك المُدّة التي لبثوها في الأرض[3]، وفي التّعجيل بالإجابة بقِلّة الأيام إشارةٌ إلى رغبتهم في التّخلّص من العذاب، فظنّوا أنّ مُدّة لُبثِهم في النّار ستكون بمِقدار مُكثِهم في الدّنيا، ثمّ زادوا في التّقليل فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[4].

دلالة التّقابل بين الأيام والسّنين:

في الآخرة تنكشف الحقائق

كان السّؤال عن السّنين، بينما جاء الجوابُ ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وبينَ السّؤال والجواب بونٌ شاسع، وتقابلٌ بين مُدّة سنةٍ ومُدّة يوم، وهو كشف عن تلك المفارقة البعيدةِ لحساب أيامِ اللّبث في الأرض، بين شعور المُتكبّر في الدُّنيا، وشُعوره بعدَ أُفولِ تلك الأيام، إنّها ليست شيئًا بعد أن طويت صفحتُها، وهكذا ما يمضي من عُمُر الإنسانِ، إنّه مهما طال وامتدّ - إذا نظر إليه الآن - كان شيئًا قليلًا[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير، ص: 5126.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 236.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 237.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 13/ 193.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1181.

تكرار الجواب بـ ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾:

تشابهُ جوابِ فاقدِ الشّعور؛ لنَومٍ أو فزَعٍ أو موتٍ

جاء نفسُ الجوابِ عن سؤال اللّبث في مواضع منَ القرآن الكريم، كما هو جوابُ صاحب القرية: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: 259]، وجوابُ أصحاب الكهف: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19]، وهو أقربُ إلى شعور الطّاغين من أصحاب النّار: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النّازعات: 46]، ولعلّ الجامع المشترك بين هذه الحالات هو عدمُ الشّعور بالزّمن؛ فالنّائمُ لا يدري المُدّة التي نامها؛ إذ أقصى نوم المَرءِ أن ينام يومًا أو بعضَ يوم[1]، وقريبٌ منه الميتُ إذ لا يشعر بأيامٍ ولا يعيش أحداثًا، وينطبق الأمرُ نفسُه على أصحاب النّار؛ لأنّ أهوالَ العذاب أنستهم ما كانوا فيه من مُتَعٍ، وما انغمسوا فيه من شهوات[2]؛ بل إنّ جوابَ أصحابِ النّار يُنبئ عن حالٍ أقربَ ما تكون إلى الأموات إن لم يكونوا أمواتًا حقًّا، ألم يكن هذا جوابًا عن سؤال الموتى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ فقالوا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[3]، فكان ظاهرُ الأرضِ وباطنُها لهم سواء؛ حين ضيّعوا الإعدادَ بحُسْن العمل.

دلالة الفاء، وبلاغة السّؤال في ﴿فَسْـَٔلِ﴾:

تفريعٌ على التّردُّد، وكشفٌ عن ذُهولٍ وقِلّة وعيٍ

أحال المُتكبّرون الجوابَ على العادّين، باستعمال الفاء وسؤالِ العادّين، ويدلّ حرفُ الفاء على تفريع السّؤال عن التّردّد الحاصل في جوابهم السّابق[4]، فأحالوا ذلك على مَن يُحْسِن العَدَّ[5]؛ أيْ: فاسأل المُتمكّنين من معرفة المُدَد[6]، وهذه الإحالةُ تُنبئ عن ذهول

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10170.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.

هؤلاء، فهم لم يَعوا كم هي مُدّة إقامتِهم في الأرض، وهو أمرٌ مَعيبٌ أن يغرق أحدُهم في يومه فلا يشعر بجوانب كثيرةٍ في يومه، بله أن يشعر بغَدِه!.

إيثار لفظ ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

العَدُّ يتطلّب تتبّعَ الأعمالِ والأحوالِ والأزمان، وما يطيقُه إلّا أهلُ الاختصاص

آثَرَتِ الآيةُ لفظَ ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾، وفي ذلك دلالاتٌ عديدة تتعلّق بمادّة اللّفظ وصيغتِه، فأمّا عن مادّة ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾؛ فهي منَ العَدّ وهو الإحصاء لتحديد المِقدار، ويقتضي العَدُّ تتبّع السّنوات سَنةً سَنةً[1]، وهو ما يُنبئ عن وعيٍ بعُمُر الإنسان وما يكون عليه حالُه، أو ما مضى على وفاته حتّى يتمّ تتبعُه، وأمّا عن صيغة ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾؛ فقد جاءت بصيغة اسم الفاعل الذي يدلُّ على رسوخ الوصف، فهذا العملُ مُضنٍ ولا يقوم به هؤلاء المُتكبّرون؛ لاشتغالهم بمُتَعِهم والاستهزاء بالمتّقين، وليس مِن همّهم، وما حاجتُهم إلى العَدّ؟ وقد كَمُلَت حياتُهم! فلَيْقُم به أهلُ الاختصاص ممّن شأنُه العَدّ والإحصاء[2]، كما يقوم بهِ الملائكةُ الذين يُحصون أعمالَ الإنسان؛ وهو وجه من أوجه تفسير الآية.

علّة فصل صدر الجملة، ولفظ القول خاصّة:

التّشوّفُ إلى معرفة جوابِ الله بعدَ جوابهم

فُصِل صدرُ الجملة ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ عن سابقه، وابتدأتِ الجملةُ بلفظ القول، وهو استئناف بيانيٌّ، فمَن سمع ذلك الجوابَ يتشوّفُ إلى معرفة جواب الله بعد جوابهم[3]، كأنّه جوابٌ لسؤال محذوف، تقديره: فماذا أجابَهم المَلِكُ الدّيّان؟ ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ على طريقة محاورات القرآن الكريم[4].

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتي ﴿قَٰلَ﴾ و﴿قُلۡ﴾:

تنوع أزمنة الأفعال يدلُّ على الحال والمآل:

في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ﴾ قراءتان؛ قرأ جمهورُ القُرّاء: ﴿قَٰلَ إِن

(1) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عدد).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 194.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.

﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالفعل الماضي، ويُحمل ذلك على الإخبار، فاللّهُ أوقفهم بالسّؤال ليَتقرَّرَ حينَها الجوابُ[1]، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿قُلْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خطابًا للكُفّار[2]، فجمعت القراءاتان بين بلاغة الخبر: في قراءة الإخبار بالفعل الماضي، وبلاغة الإنشاء: في البيان بفعل الأمر.

سِرّ تكرارِ لفظ اللُّبث:

تكرّر لفظُ اللُّبث ثلاثَ مرات في الآيتيْن الأخيرتيْن، ولعلّ السِّرَّ هنا هو مزيدُ التّقرير؛ فالتّكرارُ ترسيخٌ لمعنًى مُعيّن في أذهان الكفّار؛ وهو أنّ المقام في الأرض إنّما هو لبثٌ مؤقتٌ سرعانَ ما ينتهي، لينتقلَ المَرءُ إلى الإقامة الحقيقية، ولعلّ ممّا يُؤيّد هذه الدّلالة مجيءُ الحصرِ بـ ﴿إن﴾ و﴿إلّا﴾؛ ليكونَ الكفّارُ على يقينٍ بهذا المعنى.

تكرّر لفظُ اللّبثِ ليرسّخَ في الذّهن أنّ الحياة محطةُ عبورٍ لا قرار

دلالة ﴿إن﴾ وأداةِ الاستثناء في: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

جاء ذِكْرُ معنى اللّبثِ القليلِ بأسلوبِ الحصر بـ ﴿إن﴾ وأداةِ الاستثناء ﴿إلّا﴾، وأصل الجملة: (لبثتُم قليلًا)، ويدلّ الحصر هنا على ردّ أيِّ اعتقادٍ لديهم بخُلود حياتهم المُترفة في الدّنيا، أو اعتقادِ عدمِ إحياء الموتى بعد قبرِهم، ويدلُّ أيضًا على التّوكيد؛ حسمًا في الموضوع، وإبعادًا للتّردُّد الحاصل لديهم، وطلبَ سؤالِ العادّين، وإذا دَلّ الأسلوبُ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ على قِصَر المُدّة التي لبثوها في الأرض، فإنّ ذلك يخالف الواقع، إذ لبثوا عُمُرًا في الدّنيا، وزمنًا في القبر، وهو ما يُشعر بدلالة أخرى يقتضيها القِصَر هنا، وتقديرُها: بل لبثتُم أعمارًا وقرونًا، وإن لبثتُم إلّا قليلًا عند الله سبحانه[3]، فإنّها مُدّة من القِلّة بحيثُ لا تُسَمّى؛ بل هي عدم[4].

الحصر والتّوكيد لردّ أيِّ اعتقادٍ لديهم بخُلود حياتهم المُترفة، أو عدمِ الإحياء بعد الموت

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 158.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/330، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 592.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 133.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 195.

إيثار لفظِ ﴿قَلِيلًا﴾ ودلالتُه:

القليلُ عدمٌ

آثَرَت الآيةُ لفظَ ﴿قَلِيلًا﴾؛ للتّعبير عن مُدّة لُبثِهم في الأرض، وللدّلالة على النّقص والانعدام؛ ممّا يزيد المُدّةَ قِصَرًا ومحدوديّةً؛ حتّى عُبِّر بالقِلّة عن العَدَم، وكأنّ الخِطاب يُشير إلى القِلّة باعتبار الآخِرة، فتَتَضاءَلُ مُدّةُ لبثِهم في الأرض، وتتناقَصُ إلى أن تَؤولَ إلى أنّها لا شَيء.

دلالةُ ﴿لَوْ﴾، ودخولُها على ﴿أَنَّكُمْ﴾:

لم يَعوا بمُدّة اللُّبث في الأرض؛ لتحقُّق امتناعِ علمهم بالآخرة

في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، عبّر بحرف ﴿لَوْ﴾؛ وهو حرفُ امتناعٍ لامتناع، فامتنعَ علمُهم بالآخرة وما فيها من نعيم مقيم أو عذابٍ خالد شديد، فجَهِلوا مُدّة مقامِهم في الأرض، فإنّه مهما طال فهو قليل[1]، وزاد ذلك تأكيدًا دخولُ ﴿لَوْ﴾ على ﴿أَنَّكُمْ﴾، فدلّت على ثبوت عدمِ علمهم وتحقّقه، فتحقّقَ لأجل ذلك امتناعُ وعيهم بمُدّة لُبثهم في الأرض.

فائدة لفظ ﴿كُنتُمْ﴾:

جهالةٌ كالجِبِلّة فيهم

جيء بصيغة الكون الماضي في قوله: ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ﴾؛ وكان من الممكن أن يُقال: (لو تعلمون)، أو: (لو علمتُم)؛ وذلك للتّأكيد على امتناع علمهم[2]، وما بالجِبلّة لا يتخلّف، فقد دأبوا على ترك العِلْم وعدمِ الوعي بالأمور، وصار ذلك دَيْدَنًا لهم، وهو ما يُشعِر بانطماس الوعي فيهم، وانحطاطِ هِمَّتهم؛ حتّى صار ذلك كالجِبِلّة فيهم[3].

بلاغةُ حذفِ جواب الشّرط:

فَسْحُ المجالِ للمقارنة بينَ الحياة الدّنيا والدّار الآخِرة

حذفَ القرآنُ جوابَ ﴿لَوْ﴾؛ ثقةً بدلالة ما سبقها[4]، وتكمُن بلاغةُ الحذف هنا في فسح المجال للتّقدير؛ بناءً على المقارنة بينَ الدّنيا

(1) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 105، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 195.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.

والآخرة[1]، متاعٌ قليلٌ ونعيمٌ دائمٌ، وشدائدُ عابرةٌ وعذابٌ مقيمٌ؛ أيْ: (لو كنتُم تعلمون لما أخلدتُم إلى الفاني وآثَرتُموه على الباقي، ولكُنتم أقبلتُم على ما ينفعكم)[2].

إيثارُ لفظِ العِلْم مادّةً وصيغةً:

عـــدمُ الـوعـي بالأُمور وتمييزِها رغـمَ الـتّـذكـرة المُتكرّرة

في قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، عبّر بلفظ العِلْم؛ فأمّا عن مادّته؛ فالعِلْم يدلّ على التّعرّف على الأشياء في ذاتها بعلاماتها، لا كما يعتقدُه النّاسُ فيها، والمقارنةِ بينَها وبين غيرِها تمييزًا لها، ويُثْمِرُ العِلْمُ حُسنَ التّعاملِ معها، وكلّ ذلك غائبٌ عند هؤلاء المُتكبّرين، فلم يعدّوا للمُكث مُدّة، ولا للحَقّ قيمة، ولا للمآل عُدّة، وأمّا صيغةُ المضارع فدالّةٌ على التّجدّد، ففيها ما يُشْعِر بقابليتهم للتّعلّم، ومواتاة الفُرصِ لهم بالتّذكرة والوَعي، فما كان منهم إلّا الصّدود.

سِرُّ حذفِ مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

قَصْدُ العِلْم بكلّ ما مِن شأنه أن يعصم من سوء المآل

في حذف مفعول العلم دلالتان؛ الأولى: فسحُ المجالِ لتقدير مفاعيلَ عديدةٍ ممّا يصِحّ أن يُعْلَم؛ ليَعصِم من سوء المآل، بمعرفة إمكان البعث والحشر[3]، ومعرفة الدّار الآخرة وطولِ عذابها[4]، وحقيقةِ الدّنيا وحدودِها؛ بل إنّ كنتُم تعلمون شيئًا من العِلْم[5]، والدّلالة الثّانية: قصدُ فعلِ العِلْم نفسِه، فقد نُفيَ العِلْمُ نفسُه، فيكون المقصودُ: لو كنتُم تحاولون التّعلّم، وتقصدون إلى معرفة الأمور.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّبْث والمكْث:

المُكْثُ واللّبثُ كلاهما يَدلّان على استقرار، ولكنّهما يختلفان من

المُكْثُ بقاءٌ في مكان، واللّبثُ انتظار زمانٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 589.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 195.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 299.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10171.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 592.

حيثُ إنّ المُكْثَ استمرارٌ في مكان[1]، بينما اللّبثُ استقرارٌ لمرحلةٍ زمنية، قال تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ [يونس: 16]، إضافةً إلى أنّ المُكث غيرُ محدَّد، بينما يتحدّد اللّبث بزمنٍ مُعيّن، فالمُكثُ بقاءٌ واللّبثُ انتظارٌ.

السّنة والعام:

السّنَةُ لشِدّةٍ في الحَوْل، والعامُ لخيرٍ فيه

السُّنونَ جمعُ (سَنَة)، والأعوام جمع (عام)، وما يجمع بينَ السّنَةِ والعامِ هو أنّهما يعبّران عن مُدّة زمنيّة هي الحَوْل، فتُطلَق السّنَة على المِقدار الزّمنيّ الذي يُشير إلى الجَدْب الذي يلحَقُه رَبعٌ ويلحقه جَدْبٌ، ويظهر الفرقُ بينهما: في أنّ الغالبَ في السّنَة ذِكْر ما فيها من شِدّةٍ كالجَدْب، حتّى صحّ تسميةُ الجَدْب بالسّنَة، وأنّ الغالب في العام ذِكْر ما فيه من خير، حتّى سُمّي العامُ بحَدَثِ خيرٍ فيه كعامِ الفيل[2].

القَليل واليسير:

القِلّة نقصٌ، والقليلُ هيّن، فهو يسير

يقتربُ إلى مفهوم القليل مفهومُ اليسير، فيدلُّ كلُّ واحدٍ منهما على الشّيء الضّئيل، ويختصّ (القليل) بالدّلالة على النّقص إلى درجة الانعدام، بينما يدلّ اليسيرُ على السّهولة في الشّيء القليل، لذلك فالقليلُ يُشير إلى النّقص في المعدود، واليسيرُ يُشير إلى التّعامل معَ القليل[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 193.
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 147.
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يسر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»